النشاط الثقافي في ليبيا

من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي

بقلم الدكتور:

أحمد مختار عمر



النشاط الثقافي في ليبيا

من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي

بقلم الدكتور:
أحمد مختار عمر



منشورات الجامعة الليبية
كلية التربية
1391 هـ - 1971 م
تم إعداد هذا الكتاب من قبل مؤسسة تاوالت الثقافية
http://www.tawalt.com

مقدمة

تتاخم ليبيا من جهة الشرق الحدود المصرية ومن جهة الغرب الحدود التونسية وقد قتل الدارسون بحثا كل ما يخص مصر وتونس من الناحية الثقافية ولكنني لم أجد أحدا منهم يعرج على ليبيا ليكشف عن دورها في مجال الثقافة أو يقدم لنا صورة تفصيلية لأوجه نشاطاتها المختلفة منذ دخلها الإسلام وقد فسر بعضهم ذلك بأن ليبيا الإسلامية لم يكن لها أي دور ثقافي وأنها لم تشترك في دفع عجلة البحث العلمي إلى الامام ولهذا لم يجد الباحثون ما يكتبونه عنها في هذا الخصوص وكدت أصدق هذا الزعم وأردده مع المرددين لولا أنني شغلت نفسي منذ تعاقدت للعمل مع الجامعة الليبية بقراءة كل مايتعلق بليبيا الاسلامية في كتب الادب والتاريخ والتراجم وغيرها وكنت أسجل في بطاقات خاصة كل ما يصادفني في هذا الخصوص وبعد قرابة عامين من التنقيب والتقييد تجمعت عندي آلاف من البطاقات والمسجلات التي رأيت فيها ما يصلح نواة لبحث مركز عن الدور الثقافي لليبيا الإسلامية.

وحيث عزمت على البدء في الكتابة أخذت أسائل نفسي: عند أي فترة زمنية ساقف؟ وإلى متى سأسير بالبحث؟ لقد كان واضحا أمامي أن من السهل أن يميز المرء بين فترتين مختلفتين من تاريخ ليبيا وهما: فترة ما قبل الإسلام وفترة ما بعد الاسلام ولكن ليس من السهل ان يميز بين فترتين أو أكثر في تاريخها الاسلامي ليكون ذلك مسوغا لتقسيم نشاطها على أساس موضوعي لا اعتياطي ولهدف علمي لا تحكمي لأن تاريخ ليبيا منذ دخلها الاسلام يعد امتدادا لحياة واحدة وطابع فكري معين.

ومع ذلك رأيت ان من الخير لي وللبحث أن أبحث عن نقطة في وسط الطريق أقف عندها حتى لا تتشعب بي السبل وأضل وسط خضم متلاطم من الأحداث التي تمتد قرابة اربعة عشر قرنا بالحساب الهجري. وبعد تأمل وتدبر استقر رأيي على ان أقف بالبحث عند بداية العصر العثماني لأن الفترة الممتدة من الفتح الاسلامي حتى دخول الأتراك يمكن ان تسمى فترة وسيطة في تاريخ ليبيا تسبقها فترة قديمة وتتلوها فترة حديثة وقوى من تمسكي بهذه الوقفة ما رأيته عند كثير من المؤرخين من اعتبارهم الحكم التركي بداية العصر الحديث ونهاية العصر الوسيط وممن فعلوا ذلك الاستاذ الدكتور حسن سليمان محمود في كتابه ليبيا بين الماضي والحاضر اذ قسم الفترة الاسلامية قسمين جعل عنون اولهما الليبيون في العصور الوسطى الاسلامية وقف به عند الحكم العثماني وعنوان ثانيهما ليبيا في العصور الحديثة بدأه بالعهد العثماني.

وهكذا استقر رأيي على تخصيص هذا البحث لتتبع النشاط الثقافي لليبيا الاسلامية خلال عصرها الوسيط اي منذ الفتح الاسلامي حتى بداية العصر التركي.

وقد وجدت من الصعب في كثير من الاحيان ان افصل ليبيا في عصورها الاسلامية عن مناطق اخرى مثل مصر وبلدان المغرب المتاخمة فإن ليبيا وان كان لها مدلول خاص الان وحدود متفق عليها سواء من الشرق او الغرب او الجنوب فهي لم تكن كذلك في العصور الاولى ولم تكن حدودها فيما مضى تتفق مع حدودها الموجودة حاليا فقد كانت منطقة برقة تتبع في كثير من الاحيان مصر وقد يكون لها استقلالها الخاص والمناطق الساحلية من طرابلس كانت احيانا تستقل بوضع خاص عن المناطق الجنوبية من طرابلس وكانت تتحد معها وفي كلتا الحالتين كانت تعد اداريا جزءا من مناطق تمتد

إلى جهة الغرب.وبالإضافة إلى هذا فهناك ظاهرة انتقال العلماء من مكان إلى آخر وبخاصة في العصور الوسيطة فمنهم من ولد خارج ليبيا ثم جاء واستوطن فيها ومنهم من ولد بها ثم تركها واستوطن في مكان آخر ومنهم من قسم حياته بين عدة بلدان من بينها ليبيا فعلى اي اساس تحدد جنسية الشخص اعلى مولده ام على موطن ثقافته ام مكان استقراراه ام مكان وفاته وما الحال اذا كان عمره مقسما بين عدة بلدان بطريقة لا تسمح بتغليب بلد على آخر.

ومن اجل هذا وذاك كان لابد في بعض الاحيان من ادخال مناطق في البحث خارج حدود ليبيا الحالية وفي بعض الاحيان كنا نجد انفسنا مضطرين إلى ادراج بعض العلماء او الادباء في البحث رغم عدم انتسابهم إلى ليبيا بمدلولها الحديث وذلك نظر لانضوائهم تحت لواء دولة كانت تضم اراضي ليبيا او بعض اجزائها.

وقد رأيت قبل ان أعرض عن نشاط ليبيا الثقافي ان اقدم فصولا لا تتعلق بحال البربر سكان ليبيا الاصليين قبل مجيء الاسلام وبكيفية انتشار الاسلام في المنطقة وبحال اللغة العربية وتقدمها وانتشارها في المنطقة ثم بمراكز الثقافة التي يسرت لليبيين سبل البحث وهكذا استقر اخراج هذا الكتاب في بابين على النحو الاتي:

الباب الأول: دراسات تمهيدية؛ وتحته فصول اربعة هي بالترتيب: البربر قبل الاسلام - انتشار الاسلام في المنطقة - الصراع اللغوي في المنطقة - وسائط الثقافة لدى الليبيين.

الباب الثاني: النشاط الثقافي؛ وتحته فصول ثلاثة هي بالترتيب الدراسات الاسلامية – الادب - الدراسات اللغوية.

ثم انهيت بخاتمة تهدف إلى تقييم النشــاط الثقافي لليبيا في عصرها الوســيط ووضعــه في مكانه بين ســائر النشــاطات التي قامــت بها الدول الاسلامية الاخرى.

وليــس من همي في هذا البحــث الدرس التفصيلي لــكل فرع من فروع المعرفــة فذلك ما لايمكن علاجه في مجلد واحد بل يحتاج إلى عدة مجلدات تكــون اشــبه بدائرة معــارف كما انــه يحتاج إلــى متخصصــين مختلفي التخصــص يعالج كل منهم الفرع الذي يدخــل تحت تخصصه كذلك ليس من همي هنا الدراســة التفصيلية المقارنه لأعمــال الليبيين بأعمال غيرهم في جميع مجالات الثقافة التي طرقوها فهذا جهد جماعة لا جهد فرد واحد وهــو عمل اولى ان يقســم إلى عدة ابحاث منفصلــة. وأرجو أن اكون بعملي هذا قد وفقت في عرض الصورة العامة وتقديم الخطوط الرئيسية لجهود ليبيا في عصرها الوسيط في مجالات الثقافة المختلفة.

والله الموفق.

مدينة الحدائق طرابلس

د. احمد مختار عمر

1970 – 1390

الباب الاول

دراسات تمهيدية

الفصل الاول

البربر قبل الاسلام

أصل البربر:

يعد البربر أقدم سكان الشمال الافريقي المعروفين لنا او على الاقل من اقدم السلالات المعمرة في الشمال الافريقي[1] وقد كانوا حين الفتح الاسلامي طائفتين: طائفة الحضر وطائفة الرحل أما الاولون فكانوا يسكنون النواحي الشمالية الخصبة واتلسفوح المزروعة وهؤلاء بمرور الزمن اندمجوا في الروم ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم[2] وأما الاخرون فكانوا يسكنون الصحاري والواحات والجبال وهؤلاء احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم وكثيرا ما قاوموا الروم ولم يتركوا فرصة للثورة عليهم الا انتهزوها حتى انه بمجيء القرن السابع الميلادي كان نفوذ الروم قد تقلص من داخل ليبيا وانحصر في السواحل[3].

وآثار البربر تدل على انهم جيل عزيز مرهوب الجانب شديد البأس كثير الجمع مضاه لأمم العالم واجياله من العرب والفرس والروم وهناك آراء متعدة في بيان اصل البربر وموطنهم الاول وكيفية وجودهم في الشمال الافريقي لا يخرج بعضها في الحقيقة عن ان يكون مجرد فروض[4] واهم هذه الاراء:

1 - ان البربر كانوا يسكنون فلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حيث انتهوا إلى لوبية

1 - الجوهري : السلالات البشرية ص723 .
2 - الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص82.
3 - المرجع والصفحة وشيت خطاب قادة فتح المغرب العربي 81،71/1.
4 - يقول مبارك الميلي معبرا عن ذلك الحديث في اصل البربر من اكثر الاحاديث اضطرابا واوسعها خلافا بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا واطالوا البحث ولكنهم لم يحصلوا من ذلك الا على روايات متضاربة واراء متناقضة تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص84 ويقول صاحب الاستقصا :» واعلم ان الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا (36/1)

ومراقيــة وهما كورتان من كــور مصر الغربية فتفرقــوا اولا هناك[5] وقيل ان الــذي اخرجهم من فلســطين بعض ملوك فارس[6] ويذكــر بعضهم ان تلك الهجــرة كانت فـــي العصر الحجري وقبل ميلاد المســيح بمدة لاتقل عن ثلاثين قرنــا[7] ويفهم مـــن كلام صاحب الاســتقصا ان هجرة البربر إلى الشــمال الافريقــي تمت على مرحلتين المرحلة الاولى في فترة متقدمة من التاريخ حين تنازع بنو حام مع بني ســام فترك عدد منهم فلسطين وذهبوا إلى المغرب اما الباقون فظلوا بفلســطين حتى زمن داود فلما قتل داود جالوت امر بإجلائهم عن بلاد كنعن وفلسطين إلى ارض المغرب[8].

2 - ان البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من مكان آخر[9].

3 - أن أصلهم من اليمن من عرب حمير[10].

4 - أن أصلهم من عرب الشمال وبالتحديد من لخم وجذام.

5 - والرأي الذي اختاره ابن خلدون من ولد كنعان بن حام بن نوح وذكر ان ابناء حام ثلاثة: كنعان جد البربر ومصرايم جد قدماء المصريين وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء[11].

والــذي يهمنــا من رأي ابــن خلدون ما توصــل اليه مـــن ان البربر حاميون وليسوا ساميين وهو الرأي الذي ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة التي تربط

5 - ابــن عبــد الحكم : فتــوح مصر وافريقيا . مقتبس في احســان عبــاس : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص92
6 - عبد المنعم عبد العال : لهجة شمال المغرب ص32
7 - دبوز : تاريخ المغرب الكبير 23/1
8 - الاستقصا 60/1
9 - مبارك الميلي ص48
10 - الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص17
11 - عبد المنعم عبد العال : لهجة شمال المغرب ص22

اللغتين البربرية والمصرية القديمة برباط واحد وتضعهما في مجموعة واحدة كما سنفصل الحديث فيما بعد.

6 - ويفــرق جوســتاف لوبون بين نوعــين من البربر فيقــول ان المهاجرين الســود الشعور قد أتوا من شواطىء الفرات ومن شــمالي الجزيرة العربية او من مكان ابعد من ذلك اما المهاجرون الشقر الشعور الزرق العيون فقد جاءوا من شمالي اوربة[12].

وخطــورة هــذا الرأي انــه من ناحيــة يدعى وجــود جنســين متميزين او عصبيتــين مختلفتــين ومن ناحيــة اخرى يريــد ان يخلق شــعورا عند بعض البربر بانتمائهم إلى اصل اوربي حتى يقتل عندهم الاحســاس بالشخصية المســتقلة ويوهمهم ان ارتباطهم بفرنســا واوربا ارتباط قوي من قديم ولذا لا يوجد معنى لمقاومة الاستعمار الاوربي من أي نوع.

وشــبيه بهذا الرأي ما حاوله رين Rinn من ادعاء انتماء البربر إلى اصول اوربية متعددة معتمدا على بعض المقارنات اللغوية اللفظية[13].

7 - وهنــاك نظريات اخرى مثل القول بأنهم مــن الفرس او من الهند او من اخلاط شتى[14].

أصل كلمة بربر:

كمــا اختلف في اصــل البربر اختلف في اصل الكلمة نفســها واول من استعملها:

12 - حضارة العرب ص244 وقد علل د. محمد عوض محمد في كتابه : الشعوب والسلالات الافريقية وجود الشــقرة عند بعض الســكان بوجود هجرات اوربية شــمالية ولكن في وقت لاحق ونزول اصحابها بديار المغرب (ص 342 . 343)
13 - مبارك الميلي 53/1
14 - مبارك الميلي 49/1 و 50 الاستقصا 60/1

1 - فقيل ان البربر سموا انفسهم بذلك انتسابا إلى جدهم « بربر بن تملا» وقد عرفوا بهذا الاسم من قبل الفتح الاسلامي وقبل ان يعرفهم العرب[15].

2 - وقيل ان اول من سماهم بذلك افريقس بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية وبنى المدن والامصار فحين سمع رطانتهن ولاحظ اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر[16].

3 - ويرى بعضهم ان الكلمة يونانية الاصل وانها مشتقة من لفظ «فرفاروس» التي تعني اصلا: اللفظ او الصوت الذي يصدره الالثغ ثم صار اليونانيون يطلقونها على كل من يتكلم بلغة تختلف عن لغتهم ولذلك سموا ايطاليا «بربايا»[17].

4 - ويرى بعض آخر انها مشتقة من لفظ لاتيني قديم هو Barbarus أي المتلعثم في كلامه ويظهر ان الرومان لم يستطيعوا فهم لغة البربر فأطلقوا على اصحابها هذا الاسم[18].

5 - ويذهب بعضهم إلى انها مأخوذة من لفظ «ورورا » باللغة السنكريتية ومعناه «غريب»[19].

6 - ويقال ان العرب هم الذين اطلقوا هذا الاسم على سكان شمال افريقية جميعا. ونتيجة لذلك حلت كلمة «بربر» محل كلمة «ليبيين»

15 - دبوز 1/ 26
16 - دائرة معارف البستاني 277/5
17 - المرجع السابق 276/5
18 - ملامح المغرب العربي ص55
19 - البستاني في دائرة معارفه 277/5

منذ الفتح الاسلامي وسبب التسمية عدم فهم العرب للغتهم[20] ولكن يعترض محمد علي دبوز على هذا الرأي قائلا: «ولو صح هذا لسموا كل جنس لايفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر»[21].

أصل اللغة البربرية:[22]

أما الحديث عن اصل اللغة البربرية، وإلى أي المجموعات اللغوية تنتمي فحديث طويل متشعب وتتباين فيه وجهات النظر بشكل ملحوظ وذلك لانه يعالج لغة ذات تاريخ طويل لا يرجع فقط إلى عهد اليونان او الرومان ولكن إلى فترة ما قبل التاريخ[23] والخلاف في اصل اللغة البربرية لايخرج في مجموعة عن النظريات الاربع الآتية:

1 - انها تنتمي إلى مجموعات اللغات السامية.

2 - انها تنتمي إلى مجموعة اللغات الحامية.

3 - اما النظرية الثالثة فهي تجمع الرأيين السابقين وتضع المجموعتين في مجموعة واحدة.

4 - وأما النظرية الرابعة فتخرج البربرية عن المجموعة السامية او الحامية وتعتبرها اخلاطا او مزيجا من لغات متعددة معظمها اوربي.

20 - دبوز 26/1 وملامح المغرب العربي ص55
21 - 26/1
22 - هل يصح اعتبار البربرية لغة واحدة ذات لهجات متعددة او هي مجموعة من اللغات المختلفة؟ تختلف نظرة اللغويين في ذلك فمنهم من يعتبر البربرية لغة ويعد الخلاف بين متكلميها وان كان كبيرا خلافا لهجيا ومن هؤلاء O.Bates الذي يقول عن البربرية : «والتفاوت كبير بين اللهجات وان وجد تشابه اساسي في النحو والمفردات « (ص 73 The Eastern Libyans كذلك اعتبرها لغة مؤلفا Libya Notes (ص10) ومنهم من يعتبرون البربرية مجموعة من اللغات ولذلك اطلقوا عليها اسم «اللغات البربرية» ومن هؤلاء Applegate في بحثه The Shelha (ص324)
23 - The Eastern Libyans ص79.

وإليكم الحديث عن كل نظرية بالقدر الذي يسمح به المقام:

1 - أما اصحاب النظرية الاولى فهم اولئك الذين يرون ان الليبيين القدامى يرجعون إلى اصل سامي وانهم نزحوا اما من اليمن بعد انفجار سد مأرب او من العراق بعد حدوث طوفان مدمر[24] ويؤيد اصحاب هذه النظرية دعواهم بما يوجد من تشابه بين البربرية ومجموعة اللغات السامية مثل تلك الاصوات التي نجدها في البربرية وقلما نجدها في غير اللغات السامية كالحاء والضاد والغين[25].

وهذه النظرية في الحقيقة تبدو ضعيفة ولاتقوى على الصمود امام ما وجه إليها من اعتراضات كما سيأتي عند عرض النظرية الثانية.

2 - اما النظرية الثانية فتبدو اقوى النظريات واقربها إلى العلمية وقد توصل إليها اصحابها بعد اجراء مقارنات متعددة بين اللغة البربرية واللغات السامية من ناحية وبينها وبين الحامية من ناحية اخرى.

وقد كان البروفسر Francis Newman (عام 1836) اول من انكر الاصل السامي للغة البربرية[26] كما ان من اصحابها عالم الساميات القدير Renan الذي يقول: انه رغم وجود شبه بين البربرية وبعض الساميات فهي مختلفة عنها ولايوجد تشابه بين أي لهجة بربرية ولغة سامية مثل التشابه الموجود بين لغتين ساميتين[27]. ويقول Sergi في كتابه المشهور The Mediterranean Race: «اللغة البربرية حامية وهي قريبة الصلة بالمصرية وغيرها من الحاميات الشرقية» ويقول «ولا يمكن ان نقول ان الليبيين

24 - حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص27 والادب المغربي لابن تاويت وعفيفي ص26

25 - حسن سليمان محمود ص28 وسعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص57 . 58

26 - Libyan Notes ص10 .

27 - The Eastern Libyans ص73

لم يكونوا حاميين وانهم اكتسبوا اللغة الحامية من الغزاة لأنا نعلم ان المصريين لم يغزوا هذه البلاد واذا كان قد حدث هذا فقد كان محصورا في بعض القبائل الشرقية ولفترة محدودة حقا ان مصر قد اقامت علاقات تجارية مع القبائل الداخلية ولكن لم يكن لها سلطان سياسي عليها. وعلى هذا فاللسان البربري هو اللسان الاصلي لهذا الفرع الحامي»[28].

ويميل إلى هذا الرأي كذلك الاستاذ مبارك الميلي الذي يقول:» فأما اللغة فلا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء المصريين والنوبة والحبشة والصومال والهوصا..»[29].

ويؤيده ايضا الدكتور يسري الجوهري في كتابه السلالات البشرية اذ يقول: «الليبيون من الناحية اللغوية ينتمون إلى الحاميين كما انهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقي من الحاميين»[30].

أما المشابهات بين البربرية والمصرية القديمة - وهي ايضا حامية - فأهمها التشابه في النظام الفعلي. وفي نظام الجمع والضمائر. كما ان مقارنة المفردات في اللغتين تثبت ان هناك قدرا مشتركا بينهما في الكلمات البدائية[31]. ويعلق Oric Bates على ذلك بقوله: «وان الوحدات المشتركة في مفردات البربرية والمصرية والتشابه النحوي المثير يجعل من الممكن الاطمئنان إلى القول بوجود علاقة قوية بينهما «[32].

28 - ص56

29 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 51/1

30 - ص329

31 - انظر ص81 The Eastern Libans وقد ضرب المؤلف امثلة للكلمات البدائية المشتركة بين اللغتين فانظرها في الصفحات 81، 83

32 - المرجع السابق ص84

ويمكـــن دعم هـــذا الرأي كـذلك بالاكتشـــافات الأثرية الحديثـــة للألفبائية البربرية التي يربطها العلماء بنظام هجائي مشـــترك يشـــمل كريت ومصر وكل الشمال الافريقي واسبانيا وسنزيد هذه النقطة تفصيلا فيما بعد.

ولا ينكر اصحاب هذه النظرية وجود بعض مشابهات بين البربرية واللغات السامية ولكنهم يلفتون النظر إلى الحقائق الاتية:

ا- علـــى الرغـــم مما لوحظ من وجود عدد مشـــترك من الجـــذور بين البربرية والساميات فإن الاغلبية العظمى من المفردات مستقلة[33].

ب- ان التشـــابه بين البربرية وبعض اللغات الســـامية مرجعه التشـــابه بين المجموعتين الحامية والســـامية فقد ثبت بالمقارنة وجود تقارب بينهما في بعـــض الخصائص الصوتية وفي خاصية الاصل الثنائـــي او الثلاثي وفي نظام الضمائر وفي بعض طرق الاشتقاق[34].

ج- بعض هذا التشابه مرجعه اســـباب سياسية مثل الغزو والفتوحات القديمة[35].

د- اعتـــرف فريـــق من المؤرخين ان بعض القبائـــل البربرية التي وجدت اثناء الفتح ذات اصل عربي ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات الاصل اليمني[36].

ومعنـــى هذا انه وجد تلاق بين الحامية والســـامية او بـــين البربرية وعربية هاتـــين القبيلتـــين في فتـــرة ما من فترات التاريخ ســـمح بنوع مـــن التبادل او التأثير والتأثر.

33 - Libyan Notes ص10

34 - Barton في Semitic and Hamitic Origins ص21-23 وبعد ان عدد المؤلف احد عشـــر وجه شـــبه (ص 17-25) قال : « الفحص اللغوي يثبت وجود علاقة بين المجموعتين الحامية والسامية « (ص259)

35 - سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ص58

36 - لهجة شمال المغرب ص33

3 - وأما النظرية الثالثة فيريح أصحابها انفســـهم من هذا الصراع بين انصـــار الاصل الحامي او الاصل الســـامي ويربطون المجموعتـــين برباط واحد او أصل مشترك سماه بعضهم «المجموعة الافروآسيوية « وبعضهم «المجموعة الحامية السامية» ويعتمد هؤلاء واولئك في ربطهم المجموعتين في مجموعة واحدة على النقاط الاتية:

أ- اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات افريقية.

ب- اللغات الحامية تبدو مشـــابهة بقدر كبير للغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما.

ج- ان الســـاميات تبـــدو وكأنهـــا تطور عـــن الحاميات انها صـــورة خاصة للحاميات تطورت فيها اللغة إلى ان تكون اعرابية .

د- مـــا نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يســـمى بالجنس الحامي ماهو الا ســـامي هاجر إلـــى افريقية من جنوب الجزيرة العربية ثم اختلط بدماء افريقية متنوعة[38].

ومـــن أصحاب هذه النظرية جرينبرج الذي يعد من اقدر علماء اللغات في العصر الحاضر وقد نادى بنظريته هذه بعد ان قدم دراسة عن اللغات الافريقية اســـتغرقت الســـنوات من 1949 إلى 1955 وانتهى إلى القول بان لغة البربر واللغات الســـامية تمت كلها إلى اصل واحد سماه «المجموعة الافرواسيوية « كما أن من أصحابها مارســـيل كوهين الذي نادى بأن اللغات الحامية ليســـت - في حد ذاتها - وحدة تقف موقف التقابل من اللغات الســـامية. بل انهما يكونان أسرة أكبر هي «المجموعة الحامية السامية»[39].

37 - A Study of Race in the Anicient Near East ص55

38 - Semmitic and Hamitic Origins ص10

39 - انظـــر : Encyclopaedia Britannica مـــادة African Languages الشـــعوب

4 - وأمـا النظريـة الرابعة فهي اضعف النظريـات وابعدها عن الواقع. وقـد نادى بها فريقان مـن العلماء احدهما يضم اولئـك الذين عجزوا عن رد اللغة البربريـة إلى مجموعة معينة ومنهم علماء عاشـوا في الفترة التي سـبقت الدراسـة الجادة لهذه اللغة ومقارنتها بغيرها مـن اللغات ليمكن التنبؤ بأصلها اما الفريق الآخر فيضم بعض الساسة المحترفين الذين يزيفون الحقائق العلمية لخدمة اغراضهم الاستعمارية.

فمـن الفريـق الاول Joseph Applegate الذي يعتبر اللغـات البربرية تشكل مجموعة لغوية مستقلة تسمى «مجموعة اللغات البربرية» التي تشـمل لغات مثـل Shilha و Rif و ال Touareg و ال Kabyle وغيرها[40]. ومنهـم بيرونـي Peyronnet الـذي يـرى ان البربرية لغة غريبـة مجهولة الأصل[41].

أما الفريق الثاني فيضم عالمين كبيرين احدهما M.Olivier الذي نشـر بحثا حاول فيه ان يظهر القرابة بين الجذور البربرية والجذور الهندأوربية ويعلق مؤلفـا كتـاب Libyan Notes على ذلـك بقولهما: «ولكـن الأمثلة التي ذكرها ابعد عن أن تقنعنا بما ذكر بالإضافة إلى أن علم اللغة الآن قد تقدم إلى الامام وخلف وراءه مرحلة الزعم بأن وجود تشـابه قريب او بعيد بين المفردات يمكـن أن يؤدي إلـى القول بوجود علاقة بين المفردات يمكـن أن يؤدي إلى القول بوجـود علاقـة بين لغات لا تتفق فـي تركيبات صيغهـا»[42]. وأما الآخر فهو Rinn الـذي ناظر بين ألفاظ بربرية واخرى هنديـة اوربية وانتهى إلى القول

والسـلالات الافريقيـة لمحمد عـوض ص338 افريقية الـارض والناس لمحمـد عبد الفتاح ص140-142 ازمة المغرب الاقصى لروم لاندو ص96.

40 - انظـر : The Middle East Journal الجـزء الثانـي العـدد الثالـث سـنة 1957 ص324

41 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 85/1

42 - ص10

بـأن مفردات اللغة البربرية ترجع إلى أصـول ايطالية قديمة والمانية والجليزية وسـويدية ونروجية بل لم يكتف بذلك فطار إلى روسـيا واتانا منها بمفردات اتعب نفسـه في تقريبها من مفـردات بربرية ويعقب الاسـتاذ مبارك الميلي على هذا بقوله: «لقد كتب بقلم سياسـي لا بقلم علمي يريد ان يمزق البربر ويوزعهم على امم اوربية لكي يسهل على البلعوم الاوربي ابتلاعهم»[43].

خصائص اللغة البربرية[44]:

من خصائص اللغة البربرية ما يأتي:

1 - الابتداء بالساكن وتتابع مثل: تزاليت بمعنى الصلاة، وتمارت بمعنى اللحية، وتفويت بمعنى الشمس، وتفاوت بمعنى النار.

2 - قد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا.

3 - تاء التأنيث فيها تكون في اول الاسـم لا في آخره وقد يختم الاسم بناء كذلـك لكـن لابد من تاء في اولـه كقولهم: تامطوت بمعنـى امرأة وتامروت بمعنى بندقية.

4 - يكثر بدء اسمائها بالهمزة مثل اجنا بمعنى السماء.

5 - علامة التثنية فيها كلمة وليسـت حرفا فتثنية اتري (النجم): سـن ايتران ومعناها: اثنان من النجوم (سن = اثنان وايتران = جمع اترى).

6 - الماضـي يبتدئ باليـاء والمضارع والأمر بالهمزة. وقـد يكون الأخير بدون همـزة كما في العربية. ومثاله سُـو بمعنى اشـرب[45]. وفي بعض اللهجات يضاف للماضي سابقة هي tsoua أو tsou.

44 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث 52/1 و 53

45 - سنسـتفيد بهذا الموضوع فيما بعد حين الحديـث عن الصراع اللغوي في المنطقة وتأثير كلا جانبي الصراع على الآخر .

7 - عدم وجود أدوات أما السابقة «أل» الموجودة في البربرية الحديثة فمأخوذة من العربية.

8 - وجود علامة للمذكر وهي البدء ب «أ» او «إ».

9 - تشكيل المستقبل عن طريق إضافة السابقة Ad (d =ذ) للماضي.

10 - الضمائر نوعان متصلة كلواحق بالأسماء أو الحروف او الأفعال ومستقلة باعتبار كل منها فاعلا لفعل.

11 - هناك فرق في الصيغة بين الضمير المتصل المباشر وغير المباشر.

12 - الأفعال التي تنصب مفعولين تشكل عن طريق السابقة S للجذر.

13 - الجمع يشكل عن طريق تغيير داخلي او تغيير خارجي.

14 - تتبع الصفات الاسماء في التذكير والتأنيث وغيره[46].

15 - يقع الفعل في أول الجملة ثم الفاعل ثم المكملات[47].

الخط البربري:

ظل العلماء حينا من الدهر يظنون ان البربرية لغة منطوقة لا مكتوبة حتى ظهر فساد هذا الرأي بعد الكشوف الحديثة التي تمت في مناطق متعددة من الشمال الافريقي موطن البربر القدماء.

ويقول مؤلفا Libyan Notes: «إن الاكتشاف الذي انتهت اليه بحوث الاستاذ A.J.Evans والبروفسور F.Petrie وهو أن الالفبائية التي ظهرت في كثير من النقوش التي عثر عليها في كل الشمال الافريقي - تشكل

46 - دبوز 49/1 وأمثلته مأخوذة من البربرية الميزابية وهي بربرية موجودة في الصحراء بجنوب الجزائر .
47 - Libyan Notes ص13
The Eastern Libyans ص74

جزءا من نظام واحد مشترك بين كريت ومصر من ناحية واسبانيا وغيرها من ناحية اخرى - هذا الاكتشاف يعد واحدا من اهم الاكتشافات الحديثة حول الآثار قبل التاريخية». ويقولان ايضا: «وقد أثارت هذه النقوش اهتمام الباحثين لمدة على الخمسين سنة وقد وجدت في مسافات تمتد إلى خليج سيناء شرقا وجزر الكناري غربا والصحراء جنوبا «[48].

واذا كان هذا الكتاب قد طبع عام 1901 ويتحدث عن الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر فإن البحوث التنقيبية لم تتوقف في القرن العشرين بل زادت وبخاصة منذ 1946 يقول Goodchild: «ان أعمال التنقيب التي تمت داخل منطقة طرابلس خلال السنوات الخمسين الاخيرة وبخاصة منذ سنة 1946 قد أدت إلى اكتشاف عدد كبير من النقوش التي تمدنا بمعلومات هامة عن لغة الليبيين وحياتهم خلال العصر الروماني»[49]. ولكن المؤلف مع ذلك يعترف بأن النقوش المكتشفة ما تزال قليلة وأنها لا تكفي الباحثين اللغويين لكي يصلوا إلى نتائج لغوية محققة[50].

والنقوش التي عثر عليها تشكل ثلاث مجموعات رئيسية:

أما المجموعة الاولى فقد كتبت باللغة البربرية ولكن في حروف لاتينية وقد أطلق الباحثون عليها اسم Latino Libyan وقد لوحظ ان كاتب هذه النقوش كان يستخدم إلى جانب الرموز اللاتينية رموزا غير لاتينية للتعبير عن الأصوات التي لا توجد لها رموز في تلك اللغة[51]. ومن أمثلة هذه النقوش تلك التي ذكرها Goodchild وهي:

وأما المجموعة الثانية فقد بخط غير لاتيني، ومن بينها نقوش تم العثور

48 - ص72
49 - The Latino Libyan Inscriptions ص135
- المرجع ص143
- المرجع ص135 Inscriptions in the Libyan Alphabet ص112 ، 113

عليهــا بين عامــي 1953 و 1957 في غرزة. وتبــدو ابجديتها صورة من صور الأبجدية الليبية التي سبق العثور عليها في تونس والجزائر والمغرب[52]. وتعد نصوص غرزة ذات أهمية خاصة للكتابة الليبية لسـببين: أولهما أنها يمكن تأريخهــا بالقــرن الرابع الميلادى وما تلاه فهي تســد الثغرة بــين الخط الليبي القــديم والحديث. وثانيهمــا أن معظمها قد وجد على مبان ســكنية وأدوات منزلية في أماكن مســتقرة وليســت من نوع النقوش الجنائزية أو المرسومة على القبور[53].

وأما المجموعــة الثالثة فتمثل عددا من النقوش المزدوجة اللغة. بعضها فينيقــي – ليبــي وبعضها لاتيني – ليبي وبمســاعدة هــذه النصوص تمكن الباحثــون الفرنســيون من معرفــة القيمــة الصوتية لاثنين وعشــرين رمزا مســتعملا ومــن قراءة عدد كبير من أســماء الأعلام الليبيــة وعدد قليل من الكلمات العادية[54].

ويبدو أنه كان هناك أشكال متعددة او ألفباءات متنوعة لكتابة المجموعة الثانية أهمها الألفباء الليبيــة والألفباء الطوارقية[55]. كما يبدو أن الالفباء الواحدة قد تعرضت لأنواع من التطوير والتعديل من آن لآخر مما أدى إلى تعدد الصور التــي قدمها لنا العلماء للخط البربري وعلــى هذا يكون عندنا ثلاثة نمــاذج على الأقل يصــور أحدها مراحل تطور الخط البربــري ويمثل ثانيها الخط الليبي ويمثل ثالثها الخط الطوارقي.

52 - Inscriptions in the Libyan Alphabet ص 112 . 113

53 - المرجع ص 113

54 - المرجع ص 113 . 114

55 - وجد كذلك الخط الجرامنتي الذي كان يكتبه الجرامنت الذين استوطنوا جنوب ليبيا ومن الحفريات القليلة التي عثر عليها تبين أنه يختلف كلية عن التيفيناغ (جرمة في عصر ازدهارها ص 164).

a. Doorway of Romano-Libyan fortified farm-house at El-Ureia, showing inscription *in situ*



b. Inscription at El-Ureia

أما مراحل تطور الخط البربري فقد شـرحها كل من الأستاذ محمد علي دبوز والاستاذ مبارك الميلي. ومن مجموع ما قالاه يتبين ما يأتي:

أ - أن الحروف البربرية في القديم كانت تركب من عشـرة حروف يسمونها «تيفينــاغ» ومعناها الحروف المنزلة من عند الاله لأنهم كانوا يعتقدون أنها ليســت من وضع البشــر وصورة هذه الحروف كما يلي (مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية):

I	И	⊏	O	⊙	ϟ	+	Λ	I	ⵅ
ن	ل	م	ر	س	ي	ت	د	ج	ب

ب- وأضيف إليها خمســة أشكال تســمى «تيدباكين» ومعناها الدليل على العمل والتوسع ويعتقدون انها من وضع البشر ثم اضيفت حروف أخرى في وقت لاحق مثل:

ⵣ	ⵥ	ⵛ	+
ز	ژ	ش	ت

ج- وأضيف كذلك أشكال أخرى وعلامات للحركات مثل:

o وتدل – في الأكثر – على الضمة.

8 وتدل – في الغالب – على واو المد.

حتى صار مجموع حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا.

د- ويقال كذلك إن الملك مسينيسـا Massinissa (ولد سنة 238 قم) مؤسس مملكة نوميديا (الجزائر) قد وجه عنايته للخط البربري ورقاه وزاد في حروفه حتى استقر على النحو الذي نجده اليوم[56].

56 - انظـر دبـوز 64/1 . 65 . 149 والميلـي 87/1 . 88 ودائرة المعارف الاسلامية – بربر ص502

وأمـا الألفبـاء الليبية فأشـمل صـورة لها تلـك التي قدمها الاســتاذ Faidherbe والتي تحتوي على 27 حرفا. وهي[57]:

LIBYAN ALPHABET

Peculiar to the Tugga inscription.‡

أمـا الأبجديـة الطوارقيـة أوال Tifinagh فقـد أكتشـفها الدكتـور Oudney الفرنسـي سـنة 1822 ووجـد رموزهـا فـي منطقـة مـرزق Mourzouk فــي فزان ووصفها بقولــه:» توجد الرموز الطوارقية على كل حجر تقريبا ولايهم أن تكون الحروف مكتوبة من اليمين إلى اليسار او العكس أو عموديا»[58]. وقد قدم Oudney لنا 19 حرفا فقط. ولذا فقائمته تنقص عن تلك التي قدمها العالم Hanoteau والتي هي[59]:

57 - Libyan Notes ص 73

58 - Libyan Notes ص 74 وقـد كان هذا في القديم ثم تأثر البربر بالعرب بعد الاسـلام فصاروا يلتزمون اتجاها في الكتابة هو الاتجاه العربي من اليمين إلى اليسار (دبوز/67)

59 - Libyan Notes ص 74 . افريقية الارض والناس ص 59

وبعض هذه الحروف تتجمع في تشكيلات هكذا:

رت زت س ت ب ت

ويلاحظ أن الأبجديتين الليبية والطوارقية متقاربتان فيما عدا ما أدخلته الطوارقيــة من تعديلات تتمثل في وضع نقط بــدل الخطوط في الحروف رقم 16، 17، 18، 20، 22، 23[61](لاحظ العد من جهة اليسار).

61 - Libyan Notes ص 75 وانظر كذلك The Mediterranean Race ص 53

وهنــاك نظريــات متعددة فــي أصل الخط البربــري. فبعضهم يــرده إلى المصريــين. وبعضهم إلى اليونانيــين. وبعضهم إلى الونــدال. وبعضهم إلى الســبئيين. وبعضهم إلــى الاثيوبيين. كما أن بعضهم يربطــه بالصفوية او الثمودية المنسوبتين إلى شمالي الجزيرة العربية كما فعل Littmann[61].

ولكــن الــذي يبــدو صحيحــا أن الخــط البربري قد بــدأ البربــر بوضعه أولا [62]. ثــم عدلــوا فيه او زادوا عليه حروفا اســتفادوها من كتابات شــعوب اخــرى مثل المصريــة القديمة والفينيقية وخط المســند القديم لأهل شــمال الجزيرة العربية في فلسطين والشام والعراق فقد صرح Evans و Flinders بــأن بعض الرمــوز الخطية (أي المؤلفة من خطوط) التــي وجدت على الاواني الفخاريــة المصرية القديمة جدا تتطابق مع تلك الموجــوده في الرموز الليبية والطوارقيــة[63]. ومــن ناحية اخرى أثبت Halèvy (في أواخر القرن التاســع عشــر) أن بعضا منها مأخوذ من الفينيقية التي وجدت في شــمال افريقية وقــد وجد Halevy ســتة رموز من بين الرمــوز الليبية تتماثل في شــكلها وفي قيمتها الصوتية مع الرموز الفينيقية[64]. وقد مثل الاســتاذ دبوز لهذا التماثــل برمــز التاء في البربرية والفينيقية وهو واحــد ويكتب هكذا + ورمز الدال الذي يكتب في البربرية هكذا ^ وفي الفينيقية هكذا Δ وغير ذلك[65]. كذلك صرح الاستاذ دبوز أن التشابه بين حروف المسند القديمة وحروف البربر لايمكــن إنكاره ومثل لذلــك برموز الزاي والبــاء والتاء التي تتشــابه في كلتا الكتابتين[66].

61 - The Eastern Libyans ص 85 وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة بربر
62 - دبوز 64/1
63 - Libyan Notes ص 75. و انظر دبوز 64/1
64 - The Eastern Libyans ص 85 . 86 وانظر دبوز 64/1
65 - 66/1
66 - المرجع والصفحة

وهناك حقائق اخرى تتعلق بالخط البربري تحتاج إلى التنبيه عليها وهي:

1 - أن حروف العربية لها ما يماثلها في البربرية ماعدا العين والحروف المعجمة الثاء والذال والظاء[67].

2 - البربر لايعجمون حروفهم.

3 - العين تكتب غينا في البربرية. وتقرأ عينا أو غينا بحسب السياق. وقد وجدت عندهم العين نتيجة اختلاطهم بالفينيقيين والعرب ولذا لم يفردوا لها رمزا مستقلا[68].

4 - يقول Rinn: «المظنون أن اللاتينيين قد أخذوا حروفهم عن البربر لأنهم يسمون حروفهم الهجائية «المنتا» وحروف ل م ن هي الاولى في الحروف البربرية[69].

5 - أنه لا صحة لما يقال من أن الطوارق هو الوحيدون دون جميع البربر الذي لهم كتابة خاصة[70]؛ فقد ثبت مما سبق ان الكتابة كانت موجودة عند البربر بعامة كما يؤيد ذلك النقوش القديمة التي وجدت في مساحات واسعة ومناطق لم يسكنها الطوارق مطلقا[71].

6 - الأبجديات البربرية تعد من النوع الألفبائي وليس المقطعي. ولكن بسبب الاختصارات في استعمالها ولغياب رموز العلل (في العادة) فمن الممكن اعتبارها أبجدية شبه مقطعية[72].

7 - أن الخط الطوارقي مايزال مستعملا حتى الآن بين الطوارق ولكن في مجالات ضيقة وبصورة تختلف قليلا او كثيرا عن صورته مما يجعلهم في

67 - دبوز 64/1
68 - دبوز 64/1
69 - الميلي 88/1
70 - الشعوب والسلالات الافريقية ص 353
71 - Race of Africa ص 96
72 - المرجع السابق ص 95

كثير من الأحيان عاجزين عن قراءة نقوش اجدادهم[73].

8 - أنه لا مجال للشك في بربرية النقوش التي عثر عليها لأن تردد الاسماء البربرية في هذه النقوش يدل على أن هذه الكتابة كانت خاصة بالمواطنين الأصليين وليست بأي مستوطنين آخرين[74].

9 - أن بعض النقوش التي عثر عليها في الجزائر وتونس محفوظة أصولها في المتحف البريطاني[75].

10- يصرح الاستاذ Oric Bates أنه لم يعثر على نقوش للخط البربري أقدم من القرن الرابع قبل الميلاد[76].

ديانات البربر قبل الإسلام:

كان معظم البربر حتى بعد دخول اليهودية والمسيحية البلاد يدينون بالوثنية أو المجوسية وكان بعضهم يعبد إلهة معينة وبعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد القمر[77].

وقد بدأ دخول الدين اليهودي بلاد المغرب نتيجة لهجرات يهودية تمت ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد وقد نزلت هجراتهم الاولى على الفينيقيين في تونس بحكم الصلات الجنسية واللغوية[78]. وسجل التاريخ لهم ثورات مبكرة منذ استوطنوا بلاد المغرب وقعت إحداها عام 115م في برقة وكانت ضد الحكم الروماني وأعقبها اتجاههم نحو الجنوب وتوزعهم في كل اجزاء الشمال الافريقي[79].

73 - الصحراء الكبرى ص 103 Race of Africa ص 96
74 - Libyan Notes ص 73
75 - المرجع ص 72
76 - The Eastern Libyans ص 85
77 - انظر الدعوة إلى الاسلام لتوماس ارنولد ص 45 ودبوز 405/1 و Libyan Notes ص 9 وقادة فتح المغرب العربي 19/1 وتاريخ الفتح العربي في ليبيا للزاوى ص 18 ، 19
78 - السلالات البشرية ص 331 وملامح المغرب العربي ص 59
79 - The Eastern Libyans ص 208 والممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص75،76

ويبدو ان اليهود قد حققوا لأنفسهم - رغم قلتهم النسبية - نفوذاً كبيراً في المنطقة استمر حتى مجيء الإسلام. «ففي عام 688م تمكن الجراوة Djeraoua في جبل اوراس الذين اعتنقوا اليهودية، ونصبوا امرأة منهم تدعى كاهنة قائدة لهم - تمكنوا من مطاردة العرب بقيادة حسان حتى خليج قابس ثم تتبعوهم حتى طرابلس»[80]. ويحدثنا Blake في بحث له انه قد عثر قرب مصراته على احجار قبور نقشت عليها كتابة عبرية ترجع إلى عام 1142م مما يدل على وجود مجتمع يهودي اذ ذاك[81].

أما الدين المسيحي فقد وصل إلى المغرب في القرن الثاني الميلادي على ايدي رهبان اتوا من مصر[82]. وصارت المسيحية الدين المسيحي الرسمي للدولة الرومانية منذ ارتقى قسطنطين على عرش روما سنة 312 م فارتبطت المسيحية في نظر البربر منذ ذلك الحين بالرومان فكرهوها كما كانوا يكرهونهم، وأدى ذلك إلى مخالفتهم واعتناق البربر للمذهب الدوناتي المسيحي وهو مخالف للمذهب الارثوذكسي الكاثوليكي الذي كان عليه الرومان. وقد أدى هذا الخلاف المذهبي إلى نشوب معارك طاحنة بين البربر والرومان[83]. ويبدو انه - إلى جانب المذهبين السابقين - كان يوجد بعض

80 - قدر Sir Johnston عدد اليهود وقت الفتح بحوالي 100 الف والمسيحيين بحوالي 300 الف والبربر بعدة ملايين A History of the Colonization of Africa ص 61) ويفهم من هذا انه لم يعتبر المسيحيين واليهود من سكان البلاد الاصليين الذين سماهم بالبربر وقد صرح محمد سليمان ايوب في بحثه بعنوان «جرمة في عصر ازدهارها « بأن «أكثر الذين اعتنقوا المسيحية من سكان المدن أي من ابناء الاغريق والفينيقيين والرومان بينما ظل أغلب البربر في ليبيا على وثنيتهم « (ص 173)

81 - الصحراء الكبرى ص 72
Misurata ص 11

82 - حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص 94 ولكن يرى بعضهم ان البربر اخذوا دين المسيحية عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم (انظر : شيت خطاب قادة فتح المغرب العربي ص 19)

83 - دبوز 406/1

المسيحيين الذين يدينون بالمذهب اليعقوبي السائد في مصر؛ فإن المراجع العربية تتحدث عن مناطق من ليبيا أهلها أقباط[84].

ونعود إلى الصراع المذهبي فنقول ان المذهب الدوناتي نشأ في أوائل القرن الرابع الميلادي في شمالي اوراس الذي كان يغلي بمقت الرومان وقد أنشأه راهبان كان كل منهما يسمى «دونتوس» فسمى بالمذهب الدونتوسي أو الدوناتي وكان هذا المذهب يرمي إلى غايات سياسية مثل تحرير المغرب من ايدي الرومان ورفع لواء المسيحية.

وما كاد القرن الرابع ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين في المغرب دنتوس وحتى أقضت قلاقل الدنتوسيين مضاجع الرومان الحكام وقد بدأت المتاعب بثورة الدنتوسيين ضد الكنيسة وروما وفي ثورتهم ضد الامبراطور تعاونوا مع جماعة الدوارين Circumcelliones وهي فئة متعصبة دأبت على سلب حواف الصحراء ووكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس ولكنه أعلن الصورة على روما واستعان بالوندال وفي عام 429م اندفع الوندال بنسائهم واطفالهم إلى افريقيا من اسبانيا وكانوا نحو ثمانين الفا بينهم نحو عشرين الف مقاتل وحكموا البلاد فشعر بونيفاس بخطئه وانضم الدنتوسيون إلى الوندال لما كان يربطهما من كراهية للكنيسة الكاثوليكية وفي سنة 533 قاد بلزاريوس جيشا بيزنطيا وكما حدث للوندال قبله رحب الناس به كمخلص لهم من الوندال وفي خلال ثلاثة أشهر من وصول بلزاريوس كتب إلى الامبراطور جوستنيان ان افريقية عادت رومانية ولكن ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزالون ما اعتادوه من حب تقليدي للحرية وصاحب ذلك اعلان جوستنيان «أن المذهب الكاثوليكي هو الدين الرسمي لبلاد المغرب» وفي سنة 535 انتزعت املاك

84 - تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص 14

المخالفين من دنتوسيين ويهود وغيرهم وجردوا من حماية القانون وحجر عليهم العمل بمذهبهم وطردوا من مناصبهم واخذت الكنيسة تراقب الولاة والحكام واهل الوظائف وتتدخل في جميع شئون الدولة السياسية والمالية والادارية والحربية بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة على البربر وابتزاز اموالهم مما عمق الفجوة بين البربر وحكامهم من الرومان[85].

ويبدو ان حركات الاضطهاد ضد أصحاب المذاهب الأخرى قد أفادت المسيحية إلى حد ما وأدت إلى نشرها في الصحراء بعد أن كانت وقفا على المناطق الساحلية[86]. فقد أصبحت الصحراء ملجأ لطريدي الاضطهاد الديني والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بريتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال افريقيا لا تترك مجالا للشك في أن الافا من الرهبان الضعفاء قد فروا إلى الصحراء في الجنوب[87]. ويستدل بعضهم على انتقال المسيحية إلى الصحراء حيث يسكن الطوارق بوجود كلمات في لغتهم ذات اصل مسيحي مثل اسم ميسي ومعناه اله والجلوس ومعناه ملاك واسماء صموئيل وداود وشارك وغيرها من الاسماء التي تندر بين عرب افريقية[88]. ومن اجل هذا الصراع لم يجد الاسلام حين وفد على المنطقة دينا سماويا قويا ولم يكن عدد المسيحيين وقت الفتح الاسلامي كبيراً. «وعلى كل حال

85 - دبوز 407/1 ، 408 ، 445 والممالك الإسلامية في غرب افريقيا ص 77 ، 78 ، 79 ولكن جاء في بعض المراجع ان المذهب الدوناتي نسبة إلى صاحبه دونات Donat أحد الأساقفة الثائرين على الدولة الرومانية (انظر شيت : قادة فتح المغرب العربي 40/1)

86 - يقول أرنولد :» الولايات الرومانية في افريقية التي كان الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب فان الصحراء الكبرى تقف حاجزا منيعا في هذا الاتجاه (ص144) ومع ذلك فهناك من الباحثين من يقطع بأن بربر طرابلس رغم انهم ساحليون لم يعتنقوا المسيحية مطلقا Libyan notes ص 8

87 - الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص 74 ويقال ان الخلافات الدينية والسياسية وما تبعها من حروب واضطهادات (تم معظمها على يد حكومة الامبراطوةر جوستنيان) قد أفنت خمسة ملايين من الافريقيين (ارنولد ص 146)

88 - الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص 74

ليس من المحتمل ان تكون المسيحية - حتى اذا كانت قد وضعت اقدامها في المنطقة - قد احتلت قلوب الناس»[89]. او على حد تعبير باحث آخر «وعند الفتح العربي كان هناك عدد من القبائل البربرية المسيحية. ولكن المسيحية لم تكن متمكنة بينهم ولذا لا توجد بقايا مسيحية قوية كما وجدت في مصر»[90]. ويقول باحث ثالث: «وقبل ظهور محمد كان من الواضح ان الكنيسة المسيحية قد عجزت عن أن تقنع هؤلاء الناس. انها اختيرت كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية. وصارت ديانة اوربية بدلا من سابق عهدها كديانة افريقية أو اسيوية. ولذا فإنها أصبحت في نظر الناس تمثل حكما استبدادياً لا يطاق»[91].

وهكذا كان الواقع الديني في المنطقة يعمل في صالح الاسلام. وقد أعانه على أن يثبت اركانه ويرفع لواءه بطريقة أدهشت العالم وأذهلته كما سنتحدث في الفصل التالي.

89 - Libyan Notes ص 8

90 - The Eastern Libyans ص 208 ، 209

91 - The Romance of Nearest East ص 178